مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

وصول الإسلام وانتشاره في كانم - برنو

بالسودان الأوسط

الدكتور أمين الطيبي

تمهيد

تفيد رواياتُ كانم - التي تقع إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد - بان بطلاً عربياً من اليمن هو سيف بن ذي يَزن سيطر على جماعة من الرُحَّل في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ، ثم بسط وذريتُه نفوذَهم على عدد آخر من القبائل أصبحت تُعرف باسم الكنوري أو شعب كانم . وقد ظلَّتْ هذه الأسرةُ السيفيةُ أو اليزنيةُ التي قامتْ في أوائل القرن التاسع الميلادي تحكم كانم نحواً من ألف عام (إلى سنة 1846 م) .

وقد حرص ملوكُ كانم على التحكم بطريق القوافل الرئيسي الذي كان يصل كانم

عبر الصحراء بالشمال ـ بطرابلس الغرب وإفريقية ـ ماراً بواحات كُوار وزَويلة بفزان ، وهو طريق قديم كان مستعملاً لأغراض التجارة منذ أيام القرطاجنيين والرومان .

وكانت جماعاتٌ من أهل كانم تنزح إلى الغرب من بحيرة تشاد طلباً للمرعى ولمزاولة الزراعة ، وامتزجتْ وتزاوجتْ مع قبائل الساو في اقليم بُرنو ، الذي أصبح تابعاً لمملكة كانم .

وقد بلغتْ امبراطوريةُ كانم أوجَها اتساعاً وازدهاراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على عهد السلطان (ماي) دونما ديبالامي ، الذي بسط نفوذَه على فزان شمالاً ، وبذلك تمَّ لكانم تأمينُ طريق القوافل إلى الشمال . ويذكر ابنُ خلدون ان سلاطينَ كانم كانوا على صلاتٍ وديةٍ بالحفصيين في تونس منذ قيام دولتهم في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد .

وفي أواخر القرن الرابع عشرَ للميلاد ، ونتيجةً للمنازعات على السلطة بين أبناء البيت المالك ، والحروبِ المتواصلةِ مع قبائل البُلالة جنوبي بحيرة تشاد ، اضطُرَّ سلطانُ كانم عمرُ بن ادريس إلى النزوح عن عاصمته نجيمي/ جيمي ـ على الضفة الشمالية لبحيرة تشاد ـ إلى اقليم برنو غربي البحيرة . وفي برنو اختطَّ السلطانُ علي جاجي في أواخر القرن الخامسَ عشرَ عاصمةً مسوَّرةً ثابتةً في جازار جامو ظلَّتْ عاصمةً لسَلْطنة كانم ـ برنو ثلاثةَ قرون ونيِّفاً . ولما تغلَّب السلطانُ ادريس عَلومة على قبائل البُلالة ، واستردَّ السيطرةَ على أرض كانم في أواخر القرن السادسَ عشرَ اصبحت كانم ولايةً تابعةً لبُرنو بعد ان كانت برنو إلى أواخر القرن الرابعَ عشرَ ولايةً تابعةً لمملكة كانم .

يبدو مما أورده المؤرخون والجغرافيون العرب أن الوثنيةَ كانت تسود بلادَ كانم حتى مطلعِ القرن السادسِ الهجري/ الثاني عشرِ للميلاد . فالمهلَّبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن ديانةَ أهل كانم عبادةُ ملوكهم . وفي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي يقول البكري إن أهلَ كانم مُشركون . أما صاحبُ (كتاب الاستبصار) ـ وقد صنَّف كتابَه في مراكش في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ـ فيذكر أن أولَ إسلام أهل كانم كان بعد سنة خمسمائة للهجرة (= 6-1107 م) .

إن الدينَ الإسلاميَّ وصل إلى كانم بالطرق السلمية على أيدي التجار

والفقهاء من شمال افريقيا ، كما حدث بالنسبة إلى وصول الإسلام إلى غانة ومالي . وتفيد المصادرُ الكنوريةُ بان اولَ سلطانٍ اعتنق الإسلامَ في كانم هو حمّي (محمد) في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

إن الفترةَ الأولى في الحِقْبة الإسلامية في كانم بلغتْ ذروتَها في القرن الثالثَ عشرَ الميلاديِ على عهد السلطان دونما ديبالامي الذي يصفه ابنُ سعيد المغربي بانه المشهورُ بالجهاد وأفعال الخير . وهو الذي أنشأ في الفسطاط مدرسةَ ابن رشيق لتكون نزلاً لإيواء طلبة كانم في القاهرة . ويقول العمري إن سلطانَ كانم يحتجب عن رعيته ولا يراه احدٌ إلا في العيدين ، ويضيف بأن اهلَ كانم متدينون يتمذهبون بمذهب الإمام مالك ، وبأن العدلَ قائمٌ في بلادهم .

وقد تعزَّز الإسلامُ في كانم ـ برنو على عهد السلطان علي جاجي في أواخر القرن الخامسَ عشرَ الميلادي ، وأصبح للفقهاء والعلماء مكانةٌ مرموقة في البلاد ، كما اتخذ السلطانُ لقبَ « خليفة » ، وحذا حذوَه في ذلك من جاء بعده من السلاطين . وبحلول القرن الخامسَ عشر الميلادي ، انتشرت في برنو المدارسُ ، وكان لها صلةٌ بالجامع الأزهر ، واحتفظتْ مدارسُ برنو إلى عهدٍ قريبٍ بجودة مستوى دراساتها الفقهية والقرآنية .

وصول الإسلام وانتشارُه في كانم ـ برنو

إن اولَ ذكرٍ لبلاد كانم ورد على لسان اليعقوبي (ت 284 هـ/ 897م) الذي ذكر بان كانمَ بلادٌ يسكنها شعبٌ يُعرف باسم الزغاوة . وكانت الوثنيةُ سائدةً في كانم إلى مطلع القرن السادسِ الهجري/ الثاني عشر الميلاديِ . فالمهلّبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن الزغاوة يعظِّمون ملكَهم « ويعبدونه من دون الله تعالى ، ويتوهَّمون أنه لا يأكل الطعام . . . وديانتهم عبادةُ ملوكهم ، ويعتقدون أنهم الذين يُحيون ويُميتون ويُمْرضون ويُصحُّون[1] » . ويقول أبو عُبيْد البكري في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إن أهلَ كانم « سودان مشركون ، ويزعمون أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم

(1) يُنظر الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، بيروت 3,1979 / ص 142 .

بالعباسيين ، وهم على زي العرب وأحوالها »[2] .

وكما هو معروف ، فإن العربَ المسلمين ـ وعلى رأسهم عقبة بن نافع ـ فتحوا فزان ونواحي واحة كوار في سنة 46 هـ/ 6-667 م عبر الطريق القديم الذي كان يصل كانم بساحل طرابلس[3] . ويبدو أن اولى التأثيرات الإسلامية في كانم تسرَّبتْ إليها عن هذا الطريق لا من الغرب أو الشرق حيث كانت تقومُ مملكة مسيحية ببلاد النوبة بأعلى صعيد مصر[4] .

إن اهلَ كانم ـ بحُكْم موقع بلادهم ـ كان لا بدَّ لهم من الاتصال بالمسلمين في الشمال . وقد بدأ دخولُ الإسلام إلى كانم سلمياً على أيدي التجار والفقهاء . وكما كان الحال في غانة ، فلا بد أنه استقرَّتْ في مدن كانم جالياتٌ إسلاميةٌ منذ وقت مبكر واكتسبتْ أهميةً بحكم صلاتها بالتجارة الخارجية . وفي مثل هذه الظروف ، اعتنقتْ الأسرةُ الحاكمةُ في كانم الدينَ الإسلامي[5] . ويرى باحثان متخصصان بتاريخ القارة الإفريقية أن إسلام ملوكِ كانم يحتمل أن يكون سبق إسلامَ ملوك غانة، وأن إسلامهم كان يرجع إلى اتصالاتهم بالتجار من افريقية[6] . وكان من نتائج إسلام ملوك كانم أن أصبحت لديهم لغةٌ كتابيةٌ هي اللغة العربية ، مما جعل المراحلَ الرئيسيةَ لتاريخهم معروفة[7] .

وتدلُّ بعض المصادر على أن اسلام كانم يرجع إلى ما قبل منتصف القرن التاسع الميلادي ، اذ إن حمي أولَ من أسلم من ملوكهم قد يكون أصلُه من واحة كوار التي اعتنق سكانُها الإسلامَ في وقت مبكر . فاليعقوبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن سكانَ كوار مسلمون من عدة قبائل[8] . وثمة باحثٌ حديثٌ يرى

---

(2) البكري ، ابو عُبيْد عبد الله : المُغرب في ذكر بلاد المَغْرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) ، باريس 1965 ، ص11.

(3) ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب ، القاهرة 1962 ، ص 3-264 .

(4) Smith, A.« The carly States of the Central Sudan », in **History of West Africa,**Vol1, edit. Ajayi and Crowder, London 1979, P. 165.

(5) المصدر السابق ، ص 166 .

(6) Oliver, R., and Fage, J.D. **A Short History of Africa,** Penguin Books 1973, P. 82.

(7) . Trimingham J.S., **A History of Islam in West Africa,** Oxford U. P. 1970, P. 107

(8) Lange, D., «The Kingloms and Peoples of Chad», in **General History of Africa,** IV edit. D.T. Niane, UNESCO 1984, P. 239.

أن الإسلام دخل إلى كانم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عن طريق قبائل التبو[9] .

وخلاصة القول إن الإسلامَ بدأ وصولهُ إلى بلاد كانم منذ أن فتح العرب المسلمون فزان وكوار ، ومنها أخذ الإسلامُ في الانتشار رويداً رويداً في السودان الأوسط عن طريق الجاليات من تجار المسلمين في البلاد . ثم وصل إلى كانم في منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد نَفرٌ من بني أمية فراراً من بطش العباسيين واستقروا في البلاد . وفي الترجمة التي عقدها الشَمَّاخي لأبي عبد الله محمد بن عبد الحميد ـ والي جبل نفوسة للرستميين في تاهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ـ يقول إن أبا عبد الله كان يتكلم لغةَ بلاد كانم ـ أي الكنوري . فمن المرجح أن أبا عبد الله كان يتردَّدُ على بلاد كانم تاجراً وتعلم لغة البلاد . وهذا دليل آخر على أن الإسلامَ بدأ في الوصول إلى كانم من الشمال وفي وقت مبكر[10] .

إن (ديوانَ سلاطين برنو) هو التاريخ الرسمي للأسرة السَيْفية المالكة في كانم منذ تأسيسها في حدود عام 800 م إلى نهاية الأسرةِ سنة 1846 م . وقد جاء في هذا الديوان أن أولَ من أسلمَ من ملوك الأسرةِ هو حمي بن سَلْعمة (حَكَم حوالي 1085-1097 م) . يؤيد ذلك مَحْرَمُ أصدره حمي لشريفٍ اسمه محمد بن ماني الذي كان إسلام الملك على يديْه وأصبحت ذريتُه أئمةَ نجيمي ثم جازارجامو ، ومن بينهم كان مستشارو السلاطين حتى أواخرِ القرن السادس عشر . والمَحْرَمُ خطابٌ كان يُصدره السلطانُ ، وهو يتعلق بمنح صاحبه امتيازات موروثة كالإعفاء من الضرائب والخدمة العسكرية والاستضافة . وينص مَحْرَمُ حمي المذكور على أن أموال محمد بن ماني « حرام » على أبناء حمي إلى يوم القيامة[11] . ولا شك في أن حمي وسلاطينَ كانم من بعده أخذوا اعتناقَهم الدين الجديد مأخذاً جدياً وعملوا على نشر الإسلام بين رعاياهم .

---

(9) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، باللغة الإنكليزية ، المجلد الرابع ، ليدن 1973 ، ص 540 .

(10) Lewieki, T. , **Arabic External Sources for the History of Africa ...**, London-Lagos 1974, P. 97.

(11) Trimingham, P. 115. Hodgkin, Th., **Nigerian Perspectives** , Oxford U.P. 1975, P. 89.

أما العمري فيقول إن أولَ من نَشَرَ الإسلامَ في كانم الهادي العثماني الذي ادَّعى انه من ولد عثمان بن عفان . ويضيف العمري بانه جاء من ملوك كانم من ادَّعى النسبَ العلويَّ في بني الحسن . ولعلَّ لذكر الهادي العثماني صلةً برواية البكري عن وصول أمويين وهم من شيعة عثمان وأنصاره واستقرارهم في كانم فراراً من العباسيين[12] .

ويقول صاحبُ (كتاب الاستبصار) إن أهلَ كانم « أسلموا بعد الخمسمائة [= 1107-1106 م] »[13] . وتفيد إحدى روايات الهوسا أن أبا زيد الفزاري (نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) هو الذي نَشَر الإسلامَ في كانم ويُرْكو[14] .

ويظهر من الوثائق التي عُثر عليها في واحة توات أن تأثيرَ شمال افريقيا كان قوياً في برنو منذ أيام المرابطين والموحدين[15] .

ويلاَحظُ أنه ابتداءً من منتصف القرن الثاني عشر للميلاد كانت الزوجاتُ الرئيسياتُ لملوك كانم مسلماتٍ كما يُستدلُّ من اسمائهنَّ وأسماء آبائهن حسبما وردتْ في (ديوان سلاطين برنو) . ومهما يكُنْ من امر ، فان الإسلامَ الصحيحَ لم يؤثِّرْ في عامة الناس قبل عهد السلطان دونما ديبالامي (حَكَمَ حوالي 1210-1248 م)[16] .

يتضح مما تقدَّم أن الإسلامَ انتشر وترسَّخ باضطراد في كانم ما بين سنتيْ 1085 م و 1240 م ، حينما ذكر ابنُ سعيد أن الإسلامَ كان منتشراً بين افراد الطبقة الحاكمة .

وفي اواخر أيام السلطان دونما ديبالامي ازدادت المصادماتُ والحروبُ مع قبائل البُلالة ، ويبدو أن الإسلام كان احدَ عوامل الخلاف مع البلالة . ويتهم

---

(12) يُنظر القلقشندي ، احمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة (بدون تاريخ) ، 5 / ص 281 .

(13) مؤلف مجهول الاسم : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٤٦ .

(14) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ، باللغة الانكليزية ، المجلد الرابع ، ليدن 1973، ص 540 .

(15) Pulmer, H.R., **History of the First Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma ... with the Diwan of the Sultans of Bornu,** Lagos 1926, P. 2.

(16) Lange, P. 254.

المؤرخون ـ ومن بينهم احمد بن فرتوة مؤرخُ السلطان ادريس عَلومة في أواخر القرن السادسَ عشر ـ السلطانَ دونما ديبالامي بتدمير شيءٍ مقدَّس يُدْعى موني mune ، ولعلَّه كان يُشكِّل عنصراً اساسياً لعبادةٍ ملكيةٍ وصلتْ من ايام ما قبل الاسلام . ويرى الإمامُ احمد بن فرتوة في هذا العمل المنتهك لحرمة الدين والأعراف السبب ، في الاضطرابات والمتاعب العديدة التي حدثتْ بعد عهد دونما ديبالامي[17] .

يقول ابن فرتوة إنه كان لبني سيف شيء معظَّمٌ ومحبَّأٌ كان يتوقف عليه انتصارُهم في الحروب ، وهو يُعرف باسم موني ولا يجوز فتحه . ولما فتحه السلطان دونما ديبالامي أغضب ذلك فرعاً من الأسرة الحاكمة عُرفت فيما بعد باسم البلالة ، اذ إن فتحه او تدميره كان يعني التخلي عن قدسية الملوك . ولعلَّ المقريزي على حق عند قوله إن دونما ديبالامي هو اولُ مسلمٍ صحيح من ملوك كانم . ويُفهم من ذلك أن السلطان اراد إزالةَ اثرٍ من آثار الوثنية في كانم اسوةً بما فعل المسلمون بالأصنام في مكة المكرمة عند فتحهم لها . والغريب في الأمر استنكارُ إمامٍ كابن فرتوة لما فعله السلطان ، الا أن يكون هذا الاستنكار بتأثير التقاليد السائدة في كانم منذ القدم أو لأن الموني ـ كما ذكر أحدُ الباحثين ـ لم يكن ـ على ما يحتمل ـ سوى مصحفٍ في علبة من الجلد[18] .

إن امبراطوريةَ كانم الأولى بلغت أوجَها وأقصى اتساعها في عهد السلطان دونما ديبالامي الذي اشتهر غازياً وفاتحاً وناشراً للإسلام . ويتحدث ابنُ سعيد عن الغزوات التي كان يقوم بها السلطان دونما ضد القبائل القاطنة حول بحيرة تشاد ـ نقلاً عن الرحالة الشهير ابن فاطمة ـ فيقول : « ويُحدق بها [بحيرة كوري أي تشاد] من جميع جهاتها أممٌ طاغيةٌ من السودان الكَفرة . . . وعلى ركن البحيرة المغزاة حيث دارُ صناعة الكانم [لانشاء المراكب] ، وكثيراً ما يغزو من هنالك في اسطوله بلادَ الكفار التي على جوانب هذه البحيرة ويقطع على مراكبهم فيقتل ويسبي »[19] .

إلا أن اهمَّ توسع لكانم آنذاك كان في الشمال . ففي منتصف القرن الثالث

---

(17) **Idem** , P. 254.

(18) Trimingham, P. 117 Hiskett, M. , **The Development of Islam in West Africa,** London 1984 . P. 65.

(19) ابن سعيد ، علي : كتاب الجغرافيا ، بيروت 1970، ص 94 .

عشر الميلادي سيطر ملوكُ كانم على فزان . وقد كانت منطقة فزان تحكمها منذ سنة 306 هـ/ 8-919 م أسرةُ بني الخطاب الهواريِّين اصحاب زَويلة إلى أن قضى على حكم الأسرة قراقوش الغَزي في سنة 568 هـ/ -1173م . وعلى الأثر استغاث الأهالي بسلطان كانم ، فقام دونما شخصياً بقيادة حملة إلى فزان ، ونصَّب حاكماً وممثلاً له في تراغن على بعد نحو عشرين ميلاً شرقي مرزق . يقول ابنُ سعيد انه تتبع هذا السلطانَ « سَلْطَنةُ تجوه [عاصمة الزغاوة] ومملكة كوارو ، ومملكة فزان »[20] . ويذكر التجاني أن رسلَ ملك كانم تمكَّنوا في عام 656 هـ/ 8-1259 م من قتل احد ابناء قراقوش الذي كان قد أغار على ودان بشمال فزان « فأنفذ إليه ملكُ كانم مَنْ قتله وأراح تلك البلاد من فتنته ، وحمل رأسه إلى بلاده فطيف بها ، وذلك في سنة 656 »[21] .

وفي عهد السلطان دونما ديبالامي تعزَّزتْ العلاقاتُ مع الدول الإسلامية بشمال افريقيا . فهو الذي اسسَّ في العقد الخامس من القرن السابع الهجري/ 42-1252 م مدرسةَ ابن رشيق في القاهرة لإقامة طلبة كانم الدارسين فيها . ويذكر ابنُ خلدون انه في سنة 655 هـ/ 1257 م « وصلتْ [إلى السلطان الحفصي المستنصر] هديةُ ملك كانم . . . وهو صاحبُ برنو مواطنُه قِبْلة طرابلس . . . وكان فيها الزرافة . . . فكان لها بتونس مشهدٌ عظيمٌ برز إليها الجَفَلى من أهل البلد حتى غَصَّ بهم الفضاء »[22] .

الانتقال من كانم إلى برنو

تتحدث الرواياتُ الكنوريةُ عن متاعب كانم بعد عهد دونما ديبالامي بسبب تنازع الأبناء واستقلالهم في الولايات ، مما ادى إلى تدخل قبائل البُلالة من الأراضي الواقعة جنوبي كانم . وتعزو هذه الرواياتُ ما حلَّ بكانم من تفسخٍ سياسيٍ وما تعرَّضتْ له من فتن وقلاقل إلى قيام دونما ديبالامي بالعبث بالموني المقدَّس . ان الجماعةَ المعروفةَ باسم البُلالة [ابو ليلى ؟] تدَّعي الانتسابَ لابنة

---

(20) المصدر السابق ، ص 59 .

(21) التجاني ، عبد الله : رحلة التجاني ، تونس 1958 ، ص 111 .

(22) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر ، بيروت '1959' ، 6 / ص 652 .

احد سلاطين كانم الأوائل ، وعلى هذا الأساس قام صراعها مع الأسـرة السيفية . واليوم تعيش جماعة البلالة في اقليم بحيرة فِطري[23] .

كما واجه سلاطينُ كانم في اوائل القرن الرابعَ عشرَ مقاومةً شديدةً من جانب الشعوب غير الكنورية جنوبي بحيرة تشاد وغربيها ، وهي الشعوب المعـروفة بـاسم ساو . وقد هلك اربعةٌ من سلاطين كانم في قتال قبائل ساو هذه[24] .

وتلتْ حروبَ كانم مع البلالة متاعبُ أخرى . ففي أواخر القرن الرابعَ عشرَ نسمـع لأول مرة عن وصـول عربٍ رحَّـلٍ إلى اقليم بحيرة تشـاد ، وإليهم تنتسب قبائل الشـاوية المـوجودة اليـوم في كانم وبـرنو . ويبـدو أن هؤلاء العربَ من ذريـة القبـائل الهـلالية التي كـانت قد رُحِّلت عن مصـر في عهد الخليفـة المستنصـر بـالله الفـاطمي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي . فهل كان لهؤلاء العرب صلةٌ بتغريب بعض القبـائل العـربية في أعقـاب انهيار مملكـة النوبـة المسيحية في مطلع القرن الرابع عشر ؟ ويذكر الإمام احمدُ بن فرتوة أن العربَ كانوا حلفاءَ للبُلالة في اواخر القرن السادسَ عشر[25] .

إن حـروبَ سلاطين كانم مع البُـلالة استمـرت دون انقطاع طـوال معظم النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكانت وبالاً على مملكة كانم مما اضطر السلطان عمر بن ادريس (حَكم حوالي 82-1387 م) إلى مبارحة عـاصمته نجيمي والنـزوح مع اتباعه إلى بلاد برنو غربي بحيرة تشاد .

وعلى أثر جلاء السلطان ، اقام البُـلالة مملكـةً قويـةً في كانم ، وكـان العرب والتبـو حلفاءهم . ويـذكر الحسنُ الـوزان في مطلع القـرن السادسَ عشـرَ أن كانم كـانت أوسعَ رقعـةً وأقوى من بـرنو ، وكـان لصاحبهـا علاقـات ممتازةٌ مـع سلطان مصـر ، فيقول : « ونـال صـداقـة سلطـان القـاهـرة ورعـايتَـه بفضـل هـداياه ومجاملاته ، وحصل منه على الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيهـا ضعفَ ثمنها تظاهراً بالسخاء ، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غيرَ بلاطه »[26] .

---

(23) Smith, P. 170.

(24) المصدر السابق ، ص 173 .

(25) Smith, P. 174. Lange, P. 258.

(26) الوزان ، الحسن : وصف افريقيا ، الجزء الثاني ، الرباط 1982 ، ص 179 .

ومنذ القرن الثاني عشر للميلاد ، كانت جماعاتٌ من اهل كانم تنـزح وتستقر في اقليم برنو إلى الغرب من بحيرة تشـاد ، وقد استمـرت هذه الهجـرةُ حتى بدايـة الفترة الاستعمارية في أواخر القـرن التاسـعَ عشر . ولعـلَّ برنـو قبل القـرن الثالث عشر كانت مملكةً مستقلةً ثم خضعت لملوك كانم[27] .

ولما نزح سلاطينُ كانم إلى برنو في أواخر القـرن الرابـع عشر استمـرَّ الصراعُ على السلطة بين أفـراد الأسرة المـالكة في بـرنو ممّـا اتاح مـزيداً من الفـرص للبُلالـة وغيـرهم للانقضـاض على الـدولة . ولم تستقـرَّ الأوضاعُ إلا في عهـد علي جـاجي (الصغير) ـ حَكَم حوالي 1476-1503 م ـ وهو الذي أنهى الصراعَ الأسريَّ واختطَّ في حدود عام 1484م عاصمةً مسوَّرةً ثابتةً جديدةً في جازارجامو Gazargamu أقام بها سلاطينُ برنو في القرون الثلاثة التالية ، ومنهـا أقامـوا امبراطـوريةَ كـانم ـ برنـو الثانية . ويُعتبر السلطان علي جاجي المؤسِّسَ الحقيقيَّ لسلطنة بـرنو ، وواحـداً من اعـظم سلاطـين كانم ـ بـرنو الثـلاثة مـع دونما ديبـالاميّ وإدريس عَلومة[28] . وفي عهده ازدادت التأثيـراتُ الإسلاميـةُ وأصبح للعلماء والفقهـاء مكانتهم المـرموقـة في المناصب ، وأخذ علي جاجي في اتخـاذ لقب « خليفة » ، وحـذا حذوَه في ذلـك من جاء بعده من السلاطين[29] .

وفي عهـد خلفه ادريس كـاتـاجـارمـايي (1503-1526 م) استُـردَّت كـانم وأصبح زعماءُ البُلالة خاضعين له .

إن القرنَ السادسَ عشر شَهِدَ انبعاثَ برنو وتأسيسَ امبراطوريـة كانم ـ بـرنو الثانية كما بدأ فيه اتصالُ برنو بالدولتـين الإسلاميتـين القويتـين في شمال افـريقيا ، وهما الإمبراطـوريةُ العثمـانيةُ والمغـربُ الأقصى على عهـد السعديـين . وفي الربـع الأخير من هذا القرن ، ولي في برنو اعظمُ سـلاطينها ادريس عَلومـة الذي جهَّـز في بداية حكمه عدةَ حملات متوالية ناجحة ضد البُلالة . ومع ان سلاطينَ برنو كانوا قد استردوا نجيمي عاصمتَهم القديمة في كانم في حدود عام 1500 م ، إلا أن البُلالة لم يُهزَموا هزيمةً ساحقةً إلا على يد السلطان ادريس علومة في الربـع الأخير من القـرن السادس عشر .

---

(27) Lange, P. 255.

(28) Hiskett, P. 63. Smith, PP. 175-6.

(29) Hiskett, P. 66.

إن احمد بن فرتوة ـ كبيرَ أئمةِ السلطان ادريس عَلومة ومؤرخه ، وكان يرافق السلطانَ في حملاته ضد البُلالة ـ مصدرٌ قيِّمٌ بوصفه مؤرخاً للأحداث التي يصفها . ومع إنه يركز في تاريخه على المعارك والانتصارات ، إلا أنه يذكر بعضَ الإصلاحات التي ادخلت في عهد السلطان ادريس علومة ، كالتأكيد من جديد على تطبيق أحكام الشريعة ، ونقل السلطة القضائية من أيدي رؤساء القبائل إلى القضاة ، وتشييد المساجد من اللبن[30] .

بحلول القرن الخامسَ عشر ، ساد في برنو نظامُ التعليم الإسلامي ، وازداد عددُ الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي ، فأُقيمت المدارس ، وهي مراكزُ للتعليم العالي ، اشتهرت من بينها مدرسةُ الشيخ احمد فاطمي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، كما ظهرت في أواخر القرن السادسَ عشرَ مدرسةٌ كالومباردو التي تقع على مسافة ٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة جازارجامو ، ومن اشهر علمائها في بداية تأسيسها العالمُ الطارقي الشيخُ الوالي بن الجَرْمي الطارقي ، والشيخ وال ديدي الفَلاَّتي الذي تلقَّى العلمَ في تنبكتو وأجاديس ، وكان من أتباع الطريقة القادرية ، وكانت مدرسةُ كالومباردو مركزاً لنشر الطريقة القادرية في برنو . وقد أحيى مدرسةَ كالومباردو الشيخُ عبدُ الله البرناوي في حدود عام 1075 هـ/ 4-1665 م ، وكان قد تلقَّى العلمَ على يد العالِم الطارقي احمد الصادق ابن ابي محمد أُوَيْس ، ونشط في نشر الإسلام بين الوثنيِّين في برنو[31] . ويذكر المؤرخ المغربيُّ أحمد الناصري السلاوي الشيخ عبد الله البرنوي على أنه شيخ الولي أبي فارس عبد العزيز الدباغ ، الموضوعِ في مناقبه كتابُ (الذهب الإبريز)[32] .

وفي القرن الثاني عشر الهجري/ الثامنَ عشرَ الميلادي ، ظهرت مدارسُ أخرى في ماشينا وفي العاصمة جازارجامو . وكان العلماء والطلبة في هذه المدارس يتلقَّوْن المساعدةَ والدعمَ من جانب السلطان . وغدتْ برنو مركزاً علمياً اجتذب إليه الكثيرَ من المسلمين من بقية انحاء السودان . وكان لمدارس برنو صلةٌ بالجامع

---

(30) Hodgkin, PP. 32-3.

(31) Hiskett, P. 66.

(32) الناصري ، أحمد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء 1955 ، 5/ ص 103 .

الأزهر الشريف ، وقصدها علماءُ أتراكٌ وأندلسيون ، وقد اشتهر العلماءُ الأندلسيون في ميـدان الدراسـات القرآنيـة وتدريس الفقـه . واحتفظتْ بـرنو بصيتهـا في جودة مستوى دراساتها القرآنية إلى عهد قريب . إن عامة الناس في بـرنو تقبَّلوا الإسـلامَ والتـزموا بتعـاليمـه اكـثرَ من غيـرهم في منـاطق بـلاد السـودان جنـوبي الصحـراء الكبرى ، وقد أَقَرَّ بذلك حتى محمد بِلُّو ـ ولم يكن صديقاً لبـرنو ـ في كتـابه (إنفـاق المَيْسور)[33] .

(33) Hiskett, P. 67.